دراسات

غزة بنت الأجيال

الدكتور
خالد الشريدة

Received :6 / 6 / 2024
Revised: 27 / 6 / 2024
Accepted: 3 / 7 / 2024
Published: 1 / 8 / 2024

د. خالد سليمان الشريدة
أستاذ مساعد - قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة عجلون الوطنية
dr.khaled1965@yahoo.com

غزة بنت الأجيال

Gaza the daughter of generations

الملخص

غزة مدينة قديمة قدم الحضـارات والممالك التي نشـأت حولها في بلاد الشـام ومصـر، تاريخها حافل بالصراع مع الغزاة، فعاش على أرضها العربي أولًا واليهودي والمسيحي والمسلم والمغولي، فكانت متميزة بقدرتها على صد المعتدين وتحملها أعباء الصراع.

في هذه الدراسـة الموسـومة بغزة بنت الأجيال تطرّقنا إلى ماضـيها العريق منذ آلاف السـنين ومآثرها وندرتها في التميُّز بإتخاذ تقويمًا خاصًّا بها، وقد استخدمنا في هذه الدراسة المنهج التاريخي وتوصلت الدراسـة إلى نتائج كثيرة منها أنها لم تسـتسـلم ولم تخضـع للغاصـبين الذين جاؤوها غزاة. وإن عانت من ويلات طبيعية وبشرية بصفتها مفتاحًا لمدن الساحل الفلسطيني عامةً والقدس خاصة

الكلمات المفتاحية: بنت الأجيال، التقويم الغزّي.

Abstract

Gaza is a city as old as the civilizations and monarchies that originated around it in the Levant and Egypt. Its history was one of conflict with the invaders. It lived on its first Arab, Jewish, Christian, Muslim and Mongolian territory. It was distinguished by its ability to repel the aggressors and bear the burden of conflict. In this study titled Gaza the daughter of Generations, we touched on its ancient past for thousands of years and its achievements and rarity in distinguishing itself by using its own calendar. In this study, we used the historical curriculum and the study came to many conclusions, including that

it did not give up or submit to the conquerors who came to it. If it suffers from natural and human scourges as a key to Palestinian coastal cities in general and Jerusalem in particular

Keywords: Generation Girl, Gaza Calendar.

أهمية الدراسة:

جاءت الدراسة في ظرف تتعرض فيه غزة للعدوان من قبل المحتل الاسرائيلي، ولذلك حاولنا زيارة المراجع القديمة لمعرفة غزة وما كُتب عنها في القرن الخامس عشر الميلادي، فأصبح من الضرورة أن نستعيد ذكريات غزة التي تعرّض لها ياقوت الحموي في معجم البلدان وفتوح البلدان للبيلاذري وكذلك فتوح الشام للواقدي والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، فيرى الباحث أنه لا بد من مالتعرف على تاريخ غزة القديم والحديث والمعاصر.

منهجية الدراسة:

استخدم الباحث في دراسته هذه المنهج التاريخي لأسباب عديدة: منها تتبع التاريخ القديم لهذه المدينة العريقة، والاستدلال بمجموعة من الباحثين القدامى الذين كتبوا عن غزة في عصور ماضية وحديثة ومعاصرة، والمنهج التاريخي هو منهج علمي للباحثين يُعتمد عليه في دراسة أي حدث.

تقسيم البحث:

تم تقسيم البحث إلى مجموعة من العناوين من أهمها:

أولًا: دراسات تاريخية سابقة حول مدينة غزة.

ثانيًا: أسباب تسمية المدينة بهذا الاسم.

ثالثًا: أطماع الغزاة بجغرافية وموقع المدينة.

رابعًا: الوجود اليهودي في مدينة غزة.

خامسًا: غزة وأسباب مميزاتها.

سادسًا: أهمية مدينة غزة.

المقدمة:

غزة بقدمها وأهميتها وموقعها وتسميتها وتميزها تستحق أن يكتب لها وعنها، وغزة بماضيها قبل حاضرها، تاريخها حافل بالأحداث والصراعات والأهوال، وغزة وإن عرفنا عن تاريخها لا بد أن نعرف المزيد ونبرز ما يستحق المقارنة ويحقق الاستفادة.

ذكرنا لمن كتب لها قديما وحديثا وقد يكون القارئ المحايد الأحق بإصدار حكمه بالفائدة والمقارنة والربط لكل مفهوم بعصره ولكل حدث بسياقه وتطوراته وأثره ، وما هي اليوم إلا حديثا عاما وخاصا وألما على ألسنة الكثيرين من الكتاب وعامة وخاصة الناس، فغزة يذكرها البعض مستودعا للثروات وغزة بنتا للأجيال منذ آلاف السنين ، وغزة مفتاحا القدس ، فتناولتها كتب الجغرافيا والتاريخ والأدب قديما وحديثا ولكن ربما بغموض .

ويبدو أن غزة كانت بنوادر كتقويم غزي ، وفيها قبر جد الرسول هاشم بن عبد مناف ، وهي مسقط رأس الإمام الشافعي ولها كثيرا من العلماء والشعراء ، وعاش على أرضها العربي أولا واليهودي والمسيحي والمسلم والمغولي دون بصدام وغيره ثانيا ، وبالمقابل إذ غزاة جاءوها بمطامع فأعملوا السيف في رقاب أهلها ، وكانت في النهاية صارعة لهؤلاء الغزاة بالتأكيد .

أولًا: دراسات تاريخية سابقة حول مدينة غزة:

مؤرخون عرب كثر تناولوا غزة في تأريخهم وكتباتهم ، وتلك كتب جغرافيا وفتوح وحضارة كمعجم البلدان لياقوت الحموي، وفتوح البلدان للبلاذري، وفتوح الشام للواقدي ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، وكثيرا من السياح زاروا غزة وكتبوا عنها في القرن الخامس عشر الميلادي[1]، وهكذا هي المحفوظات الملكية المصرية، ومؤلفات خطط الشام لمحمد كرد علي[2]، والعرب قبل الإسلام لجورجي زيدان، وتاريخ مدينة غزة، لإم. أي. ماير، وكتاب غزة، للفرنسي شارلز كليرمونت[3]، وفي كتاب أقدم صدر عام ١٩٠٧ للحاخام الأمريكي مارتن ماير، ومؤلفات للمؤرخ العربي الفلسطيني عارف العارف، واستفدنا منه كثيرا في كتاب له صدر عام ١٩٤٣م حول غزة تناول فيه تاريخ غزة متسلسلًا بنسق حولية تاريخية، فبدأ بالحديث عن موقعها، وأهميتها التاريخية، ومسمياتها المختلفة، وبمعنى ودلالة كل اسم ، ثم انتقل للحديث عن بناة غزة الأولين والشعوب التي سكنتها منذ أقدم العصور التاريخية ، والدول التي حكمتها حتى قدوم الفتح الإسلامي، وهكذا تحدث العارف بإسهاب عن فترة الحكم العثماني حتى الانتداب البريطاني وإن تغافل العارف كثيرا في توثيق مادته[4]، وهناك كتاب تحفة الأعزّة في تاريخ غزّة لمؤلفه عثمان الطباع

وهو أحد أبرز المؤرخين العرب الذين كتبوا عن غزة، وتاريخها الاجتماعي والثقافي في النصف الأول من القرن العشرين، وهناك قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧ تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية لحسين أبو النمل ، والتطور الثقافي في غزة من عام ١٩١٤- ١٩٦٧ لـــ لأحمد الساعاتي، وكتاب غزة التاريخ الاجتماعي تحت الاستعمار البريطاني لباهر السقا مما وقعت عليه أعيننا.

ثانيًا: أسباب تسمية المدينة بهذا الاسم:

لقد تغير اسم غزة عبر التاريخ بتبدل الأمم التي صارعت شعبها وطمعت بأرضها، فقد كان العرب ولا يزالون يطلقون عليها غزة، أو غزة هاشم في إشارة إلى جد نبي الله محمدا هاشم بن عبد مناف الذي توفي على أرضها[٥]، أما العبرانيون فأطلقوا عليها غزة بالعين أو بالهمزة بدلاً من الغين ، ويقول العارف في كتابه تاريخ غزة أن الكنعانيين كانوا يطلقون عليها مسمى هزاتي، وقدماء المصريين كانوا يسمونها غازاتو أو غاداتو[٦]، ويستطرد هذا المستشرق قائلا أنه جاء في المعجم اليوناني أنها أعطيت في العصور المختلفة عدة أسماء، منها أيوني ومينووا وقسطنديا، كما أطلق عليها الصليبيون غادريس. وأطلق عليها الأتراك غز، ويورد العارف في كتابه احتمالات عدة لمعنى هذا الاسم، فقد يكون من العزة والمنعة والشدة، وقد يكون من الخزينة والثروة[٧]، وهكذا أستاذنا مصطفى مراد الدباغ صاحب موسوعة بلادنا فلسطين، يرجح هذا المعنى بين القوي والمخزن والكنز وما يمكن ادخاره، وهذا رأي أنيس فريحة كذلك في كتابه أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، ويقول يوسابيوس القيصري الذي أطلق عليه أبو التاريخ الكنسي، وعاش في القرن الرابع بعد الميلاد، أن غزة تعني العِزة والمَنَعة والقوة، وانضم إليه في ذلك العارف كما أسلفنا ووليام وهكذا سميث في قاموس العهد القديم، وذكر في معجم البلدان أن غزة كانت اسم زوجة صور الذي بنى مدينة صور الفينيقية التي تقع في لبنان حاليا[٨].

ويذكر العارف أن هناك ثلاث مدن على وجه الأرض سميت بهذا الاسم غزة[٩]، وربما أخذ هو بهذا عن موسوعة معجم البلدان ،حيث نجد ثلاث بلدات عُرفت بهذا الاسم في المنطقة، الأولى في جزيرة العرب، وهي التي تحدث عنها الشاعر الأخطل في شعره، .والثانية بلد بإفريقيّة وهو الاسم القديم لتونس، ويقول الحموي إن بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام، تنزلها القوافل المتجهة إلى الجزائر ، أما غزة الأشهر عبر التاريخ فهي غزة فلسطين، ويصف الحموي موقعها بأنها مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، وهي في ناحية فلسطين غربي عسقلان[١٠]، حيث تبدل اسمها بتبدل الامم التي صارعتها والأمم الراغبة بسكنها، وقد جاء بمعنى الاسم لغويا نقلا عن بعض اللغويين

ومعاجم المصطلحات أن "العرب تقول قد غزَّ فلان بفلان واغتزَّ به إذا اختصه من بين أصحابه[١١]، وقد أطلق عليها كما أسلفنا غزة هاشم بن عبد مناف جد الرسول وبها قبره[١٢]

ثالثًا: أطماع الغزاة بجغرافية وموقع المدينة:

غزة من أقدم مدن العالم ، أسسها وسكنها الكنعانيون ، وربما كانت من قبلهم حيث أخذوها من العموريين[١٣]، ويقول عالم الآثار الإنجليزي السير فلندرس بتري إن غزة القديمة أنشئت قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، فوق التل المعروف بتل العجول، وإن سكانها تركوها بسبب الملاريا التي اجتاحتها في ذلك الوقت، والكنعانيون الفلسطينيون دخلوا غزة منذ أربعين قرنا واتخذوها حصنا منيعا لهم [١٤]، وإنها من أقدم المدن التي عرفها التاريخ. وإنها ليست بنت قرن من القرون، أو وليدة عصر من العصور، وإنما هي بنت الأجيال المنصرمة كلها، وربما رفيقة العصور السابقة كلها[١٥].

بهذه الكلمات وبودنا الإشارة بأكثر لغزة في تاريخها الوسيط، فبدءا بسيطرة الرومان على غزة بعد حصار سنة كاملة سنة ٩٦ ق.م[١٦]، وغزة في العهد الروماني أصبح لها تراتيب وظيفية خاصة بها ، كمحكمة البلدية ومركز القضاء للمحافظة على النظام والتقيد بالأخلاق، ولها شرطة خاصة ينتخبهم سكان المدينة، وموظف آخر ينتخبه المواطنون كذلك للحفاظ على حقوقهم ، وهكذا موظف لحراسة معابد المدينة ، ووظيفة تميزت به عن غيرها هي مسئول الأسواق وكأنه بالمحتسب[١٧]، وثمة مقولة إستراتيجية رائجة لنابليون بونابرت عن قطاع غزة، فقد وصفها بمدخل أفريقيا وبوابة آسيا وهكذا الحاكم الروماني هيرودوس يقول عنها :" أنها مدينة عظيمة " وكانت لها إدارة مستقلة [١٨].

تسلمها القائد المسلم عمرو بن العاص بنفسه ، حيث تفاوض لاستلامها، فقال:" مالها أحد غيري "[١٩]، فعمرو بن العاص رضي الله عنه قدم بجيشه فاتحا قُرب غزة في مواجهة البيزنطيين فاقتتل الطرفان فيها قتالا شديدا وانتصر المسلمون[٢٠]، إذ دعا الخليفة أبا بكر عمروَ بن العاص فسلَّم إليه الراية، وقال:" قد وليتك على هذا الجيش يعني من قبائل أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب فانصرف إلى أرض فلسطين"[٢١]، وكما يقول المؤرخ الطبري في هذا الفتح: "اقتتلوا فيها قتالا شديدا، ثم إن الله تعالى أظهرَ أولياءه، وهزم أعداءه وفضَّ جمعَهم"[٢٢]، وهذا الفتح الإسلامي لغزة تم بقيادة عمرو، ويبدو بالتأكيد قائد فتحها هذا وغيره من قادة وجنود هم من كانوا يترددون عليها قبل الفتح ولهم بها معرفة[٢٣]، وبقيت غزة بيد المسلمين حتى جاءها الاحتلال الصليبي كغيرها من بلاد فلسطين ونالت من وحشية الاحتلال كغيرها، وتلك أفعالهم في القدس والمدن الفلسطينية ، ولا بد من الإشارة إلى أن أطرافا مسيحية قد تبرأت مما فعله الصليبيون من مجازر بحق أهل القدس وأهل غزة وغيرها ، فتذكر الروايات أنهم قد قتلوا سبعين ألفا في القدس، وتلك حال المسلمين في ظل الحكم الصليبي

لمدينة غزة[٢٤]، ويبدو أن سيطرة الصليبيين على غزة جاءت بعد سيطرتهم على مدينة القدس بقيادة جودفري سنة ١١٠٠ م، وأصابها الإهمال في ظل الحكم الصليبي هذا[٢٥]، حتى حررها صلاح الدين الأيوبي قبيل تحريره مدينة القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وأعاد لها أهميتها وألقها ودورها الحضاري ، ولا سيما من خلال المؤسسات الخدمية والأمنية في هذه المدينة الهامة بنظره وبنظر قادته[٢٦]، ثم سلمها الصالح إسماعيل للصليبيين ،ولم يتوقف الصالح إسماعيل عند هذا الحد، بل أبرم مع الصليبيين اتفاقا عسكريا سلَّم إليهم بموجبه بيت المقدس وطبريا وعسقلان وغزة كذلك[٢٧]، ثم كان للصالح نجم الدين أيوب شأن عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م إذ وقعت معركة غزة بين جيش مصر الأيوبي بزعامة بيبرس وأقطاي وأيبك وعلى رأسهم الصالح نجم الدين أيوب من جهة، وقوات الأيوبيين في الشام بقيادة الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص والصليبيين من جهة أخرى، ويقول مؤرخ الأيوبيين ابن واصل الحموي:"وقع المصاف بين الفريقين بظاهر خارج غزة، فكُسر الملك المنصور ومَن معه كسرة عظيمة، وأخذت الفرنجَ سيوفُ المسلمين فأفنوهم قتلا وسبيا، ولم يفلت منهم إلا الشارد النادر، وأُسر من عسكر دمشق وعسكر الكرك جماعة مقدمين وغيرهم، ونُهبت جميع أثقال الدمشقيين، وورد عن الملك المنصور أنه قال: والله لقد حضرتُ الحرب ذلك اليوم وأوقع الله تعالى في قلبي إنا لا ننتصر لانتصارنا بالكفار على المسلمين"[٢٨].

اهتم سلاطين المماليك ومنهم الظاهر بيبرس بغزة وطالما أقام بها للصيد والتنزه ، وأنعم على أهلها بعطائه وهكذا من خلفه من أمراء وسلاطين المماليك[٢٩]، فيذكر العارف نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار أن هذه المدينة في العصر المملوكي قد أصبحت نيابة مستقلة وأصبح هذا النائب قائدا للجيش ، ورتبت لها وظائف مثل الحاجب الكبير والمهمندار بتلقي الرسائل الواردة ، ونقيب النقباء وشاد الدواوين وأمير البريد وقاضيا للشافعية وآخرا للحنفية وآخرا للملكية فهي متعددة المذاهب، ثم وكيل بيت المال والمحتسب وكاتب الدرج وناظر الجيش ، وكان توقيع كل من هذه الولايات برسم السلطان المملوكي نفسه[٣٠]، وهكذا تاريخ غزة في عهد الدويلات الإسلامية الانفصالية في العصر العباسي الثاني بتبعيتها لإدارة وحكم من تولى أمر مصر أولا[٣١]، وعانت المدينة من ويلات وأهوال ، ومنها تدميرها على يد المغول بقيادة هولاكو ومن جاء بعده ، وعانت من كوارث طبيعية كالزلازل والأمراض والفيضانات المطرية[٣٢].

وبخصوصها عقائديا دخلت المسيحية لمدينة غزة وما حولها في عهد حكمها الروماني ، ويذكر أنه من بشر بهذا الدين _ فيلبس_ أحد تلامذة القديس بولس[٣٣]، كما أن للمسيحيّة تاريخ أصيل في مدينة غزّة منذ بناء أوّل كنيسة فيها سنة ٣٦٣م أيّام الحكم الروماني لهذه البلاد، وظلّت المسيحيّة

جزءًا من هويّة غزّة الحضـاريّة إلى أيامنا هذه، وقاتل مسـيحيّو غزّة العرب القوى الصـليبية الغازية مثلما قاتلهم كلّ أهل البلاد وقياداتهم في حينها[٣٤].

رابعًا: الوجود اليهودي في مدينة غزة:

تتعدد الأقاويل بهذا الخصوص، وحسب الرواية التوراتيّة، فإن يوشع بن نون الّذي خلف سيدنا موسـى قد تمكّن من إخضـاع عدد من المدن الكنعانيّة في زمانه عام ١١٨٩ ق.م، باسـتثناء غزّة الّتي ظلّت بعيدة عن نفوذه ونفوذ اليهود عمومًا، وغزة لم تدخل في حكم بني إسـرائيل إلا أيام ملك سـيدنا سليمان ٩٦٠-٩٣٠ ق. م [٣٥]، وربما يعتقد الغزيون بأنّه ولد سليمان في غزّة، دون أن يرد في الكتب والأسفار ما يؤيّد ذلك[٣٦]، ومع ذلك ظلّت طائفة يهوديّة تقيم في غزّة طوال مرحلة الغزو الصليبيّ وما بعده، حيث أشـــار الحاخام ميشـــولام الّذي مرّ بغزّة ســـنة ١٤٨١م إلى جودة خبز ونبيذ مدينة غزّة، واقتصار صناعة النبيذ على الطائفة اليهوديّة، الّتي كان تعدادها يساوي ٦٠ عائلة حسب هذه الرواية ، وذكر وجود كنيسًا صغيرًا لهذه العائلات في المدينة حسب معتقده[٣٧].

ولا ينكر البعض الآخر أن وجودا يهوديا في غزّة قبل الفتح العربيّ الإســـلاميّ للمدينة، وبعد فتح المدينة كثر اليهود في غزّة، ووجود اليهود وأعمالهم وحالهم في غزة بلســـان حالهم مدونة[٣٨]، إذ كان الفتح الإسلامي لغزة عهد رعاية وسلم وبركة على اليهود[٣٩]، وقد اشتهروا في صناعة الخمر واحتكاره في حينه، لأنّ الإسلام حرّم على العرب المسلمين شرب الخمر وصناعته، وممّا يذكر أنّ يهود غزّة ظلّوا يتقنون تخمير عنب الكرمة طوال القرون الوســـطى من عمر المدينة، حيث كان لهم مستعمرة خاصّة بتجّار الخمر في ميناء ميومة على شاطئ غزّة[٤٠] .

ولم تشر المصادر إلى الوجود اليهوديّ في غزّة قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد غادر يهود غزّة المدينة كلّيًّا مع حملة نابليون على الساحل بعد مصر سنة ١٧٩٩م ، وفي خلال عقد من الزمن بعد الحملة تلك، لم يبق يهوديّ واحد في غزّة، وقد ظلّ كنيســـهم مهجورًا ، وممّا يذكر أنّ إبراهيم باشـا حين احتلّ بلاد الشـام بعد حملته عليها سـنة ١٨٣١م، قد قام ببناء سـور عسـقلان من حجارة كنيس يهود غزّة المهدّم فيها[٤١] ، وأخوه طوسـون في رحلته سـنة ١٨٥٧م، لم يشـر حين زار المدينة في ذلك العام إلى وجود اليهود فيها، بينما أشـــار القسّ النمســـاويّ جات الّذي زار غزّة ســـنة ١٨٨٧م إلى الحيّ اليهوديّ في المدينة، فيما ذكر شـوماخر الّذي زارها قبل ذلك بعام واحد من زيارة جات سنة ١٨٨٦م لم يأت على ذكر وجود اليهود في غزّة، باستثناء بعض العائلات المسيحيّة القليلة في غزّة ودير البلح[٤٢]، بينما في رواية أخرى يقال بأنّ حكومة الســـلطات البريطانيّة، وبدافع من

الحركة الصـهيونيّة، قد أرغمت اليهود الباقين في المدينة على مغادرتها، وقد غادروها فعلًا بحراسـة بريطانيّة، وبلا رجعة[٤٣]، وغزة مدينة وهذه الدلائل بعروبتها عبر تاريخها الممتد لآلاف السنين[٤٤].

خامسًا: غزة وأسباب مميزاتها:

انفردت غزة بخصـــائص عديدة ، هي بتقويم خاص التقويم الغزّي ووصـــلت غزة من الشـــهرة والأهمية التاريخية، إلى أن أصـبح لها تقويم خاص بها، عرف بالتقويم الغزّي، كما للمسـلمين بتقويم هجري، وللمسيحيين بتقويم ميلادي، ولليهود بتقويم عبري أو التقويم القبطي، ويرجع مؤرخون سبب حصـــول تقويم غزّي، هو ارتباط تلك المدينة بتواريخ حروب عالمية عليها ومنها، كحروب ملوك الفراعنة، وملوك اليونان والرومان، وملوك الأشـوريين والبابليين، وقادة المسـلمين كصـلاح الدين وأولاده، وهي معارك غيرت حياة أمم، وكتبت تاريخا جديدا، ثم ما لبث أن تم محوه بحرب كبرى، وهكذا حتى صـــارت أحداث غزة، تقويماً، يبدأ عام ٦٠ قبل الميلاد، على وجه تقريبي، وبحســـب المؤرخ العارف فإنه ينقل أن السـنة الغزّية، ما بين شـهر أكتوبر من سـنة ٦١ ق.م وشـهر أكتوبر من سنة ٦٠ ق.م ، والتاريخ الغزي يبدو أنه قد ارتبط بأحداث ووقائع على أرض غزة تحديدا ، دون ذكر عام لهذا التقويم أحيانا ، وبدأ بالحكم اليوناني لهذه المنطقة وهذه المدينة ، وربما كانت البداية كما ذكرنا ، ولهذا التقويم أشهرا كما هي الأشهر الميلادية والهجرية [٤٥].

وفي غزة كما أسلفنا مات جدُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هاشم بن عبد مناف القُرشي، في تجارة له وهو لا يزال شـابا ابن خمسـا وعشـرين عاما مع أخيه عبد شـمس، وسُميت لهذا السـبب بين بعض العرب بغزة هاشـم بن عبد مناف جد الرسـول، وبها قبره [٤٦] ، وزارها عبد الله بن عبد المطلب والد الرســول الكريم في تجارة له مع الشــام [٤٧]، ويذكر ابن فضــل الله العُمري أن غزة كانت وجهة لـواحدة من رحلتي قريش المذكورتين في القرآن، رحلة الشتاء والصيف الصيفية منها"[٤٨] .

واللافت أن أسـقف غزة قد جاء إلى النبي صـلى الله عليه وسـلم حين كان في تبوك في غزوته المعروفة عام ٩ هـــ/ ٦٣٠ م فأخبره أن جدَّه هاشـما وأخاه عبد شـمس قد ماتا في غزة منذ سـنوات طويلة أثناء تجارتهما، وقد أخذت الكنيسـة هذه الأموال وبقيت في عُهدتها، فدعا النبي صـلى الله عليه وسلم عمَّه العباس بن عبد المطلب فقال: "اقْسِم مال هاشم على كُبراء بني هاشم". ودعا أبا سفيان بن حرب فقال: "اقسم مال عبد شمس على كبراء ولد عبد شمس"[٤٩].

منذ ذلك الحين استوطن المسلمون غزة وكثروا بها وأصبحوا سادتها منذ الفتح الإسلامي، وغزة أول مدينة في فلسـطين فتحها المسـلمون ، ثم تعاقبت بقية المدن الواحدة تلوى الأخرى[٥٠]، وقد عرفت

غزة عددا من كبار علماء الأمة الذين وُلدوا فيها، وأصـــبح لهم علامة يشـــار لها بالبنان في تاريخ المســلمين، وعلى رأســهم الإمام الشــافعي محمد بن إدريس المطلبي الهاشــمي القرشــي[٥١]، ويلتقي الشافعي في نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف بن قصي كلاب، وقد تكلم الشافعي عن نفسه قائلا: "وُلدتُ بغزة سنة خمسين ومئة وحُملت إلى مكة وأنا ابن سنتين"[٥٢] ، ولطالما حنَّ الشافعي إلى غزة والعيش فيها، حتى قال:

"وإنّي لمشتاقٌ إلى أرضِ غزَّةَ وإن خانَني بعدَ التفرُّق كِتماني

سقَى اللهُ أرضا لو ظفرتُ بتُربِها كَحَلتُ به من شِدّة الشوقِ أجفاني"[٥٣]

وفي رواية أخرى تذكر أن الشافعي أخذته أُمُّه بعد وفاة والده يتيما إلى مدينة عسقلان عند أقارب له، ثم انتقلوا إلى أهله وقبيلته قريش في مكة المكرمة، وفيها تعلَّم وكبر ويبدو أن الشـــافعي لم ينقطع عن زيارة غزة بعدما أصبح شابا، فقد وجده فيها صديقه القاضي هارون بن عبد الله الزهري المديني أحد قضــاة الدولة العباســية في مصــر والشــام، الذي قال عنه: "كان الشــافعي معي بغزة في منزل واحد. فكان يصــنف كتبه بالليل، فقلتُ له: تتعب نفســك تســهر وتفني الزيت وتؤلف كتبا تخالفُ فيها مذهب أهل المدينة، مَن ينظر فيها؟"[٥٤].

لا نكاد نحصـــي في مقامنا هذا كثرة علماء غزة الذين ذكرتهم كتب التراجم، فقد ذكر الذهبي والصــفدي وابن حجر والســخاوي وغيرهم عددا كثيرا من هؤلاء الغزّيين الذين اشــتهروا في علوم الشـريعة والعربية وغيرها[٥٥]، مثل الشـيخ شـمس الدين محمد بن خلف الغزّي من علماء القرن الثامن الهجري والفقيه الشــافعي الذي "اشــتغل وتميَّز وبرع في الفقه وأفتى ودرس وجمعَ وألف كتاب ميدان الفرسان"[٥٦]، وعرفت غزة علماء كبار آخرين مثل ابن وصيف الغزّي الذي وصفه الذهبي بـــ"الشيخ المُسـنِد الكبير"[٥٧]، وعرفت أيضــا الشــعراء مثل إبراهيم الغزّي، وهو رجل عاش في القرن الخامس والنصـف الأول من السـادس الهجري، وُلد في غزة ولما أصـبح شـابا ارتحل إلى دمشـق ثم إلى بغداد ومنها إلى خراسان، وفي كل بلد نزل فيه كان ينظُم الشعر واشتهر بشعره ، ورحل لخراسان وانتشر شـعره فيها، وجمع شـعره في ديوان، ولما حضـرته الوفاة في بلخ وكان شـيخا كبيرا ورد عنه قوله: "أرجو أن يغفر الله لي لثلاثة أشـــياء كوني من بلد الإمام الشـــافعي غزة، وأني شـــيخ كبير، وأني غريب"[٥٨] ، ومن شُـــعراء غزة الذين ذكرهم الحافظ ابن حجر العســـقلاني بدر الدين الغزّي الذي وصـف بالبراعة في نظم الشـعر، "وله رسـالة سـمّاها قريض القرين، تشـتملُ على نظم ونثر عارضَ بها رسالة ابن شهيد في النوابغ والروائع"[٥٩].

كما عرفت غزة المشاهير في معرفة النباتات والأعشاب والصيدلة مثل ابن زُقَّاعة برهان الدين النوفلي الغزّي من أهل القرن الثامن وبدايات التاسع الهجري، وقال الزركلي في وصف هذا: "إنسان عجيب. من أهل غزة. بدأ خياطا، وقرأ على شيوخ بلده ونظَم كثيرا مما يُسميه بعض الناس شِعرا، وتفرد في معرفة الأعشاب ومنافع النبات فكان يصفُ أشياء منها للأوجاع كالأطباء، ويسترزق بالعقاقير، وتزهد وساح في طلب الأعشاب"[٦٠]، وقد مرَّ على غزة كبار علماء الإسلام مثل الحافظ الحسين بن علي النيسابوري الذي سمع على أحد أشهر علمائها وهو الحسن بن الفرج الغزّي، الذي لم يكن من كبار علماء الحديث في غزة فقط، بل في عموم ديار الإسلام في عصره في القرن الثالث الهجري. وقد تلقى علومه في بلاد الشام ومصر والحجاز، وكان حافظا مُحدِّثا على مذهب الإمام مالك بن أنس، سمع عليه كثير من العلماء والحفاظ وأخذوا عنه مثل النيسابوري والتنيسي والمقدسي وغيرهم[٦١].

سادسًا: أهمية مدينة غزة:

وكما ذكرنا كانت غزة تمثل مع أخواتها من المدن الشامية الهدف لإحدى الرحلتين الشهيرتين اللتين وردتا في القرآن الكريم في : " رحلتا الشتاء والصيف": رحلة القرشيين شتاءً إلى اليمن، ورحلتهم صيفاً إلى غزة ومشارف الشام[٦٢]، وأوضح غوتهيل أهمية غزة الإستراتيجية قائلاً: إنها نقطة التقاء للقوافل التي كانت تنقل بضائع جنوب الجزيرة العربية والشرق الأقصى إلى البحر الأبيض المتوسط، ومركز توزيع هذه البضائع إلى سوريا وآسيا الصغرى وأوروبا، وهي كذلك همزة الوصل بين فلسطين ومصر[٦٣].

وقاتلت وتقاتل فيها ولأجلها معظم جيوش العالم القديم، وقيل وبشأن الحروب لغزة خاصية حيث هي مقبرة الغزاة :صرعوها أو صرعتهم ..! إلى درجة قال فيها مؤرخون كالعارف المشار إليه، إنه لم يبق فاتح ولا غازٍ، إلا ونازلتْه ، فإمّا يكون قد صرعها، أو تكون هي قد صرعتْه..... فعبرتها أمم واستقرت بها أخرى، ثم أجبرت على الرحيل ، ودخلها ملوك أكثر من أي مدينة أخرى بحجمها مقارنة بغيرها في ساحل الشام، وأصبحت أرضها، مركز تلاقح حضارات وثقافات، وعلى الرغم من صغر الحجم الجغرافي لغزة ومحيطها، والتي تحمل هذا الاسم بغزة أو منطقة غزة أو قطاع غزة أو أي تقسيم إداري تعارف عليها وعرفت به ، إلا أنها كما ذكرنا كانت مقصد جيوش وعبور وإقامة أمم على الدوام[٦٤]، وغزة على مر العصور ذات صلة وثقى بالعرب والحياة العربية، ثم كانت للإسلام قرة ومقرا بعقيدة إسلامية، ثابتة واثقة فتحها ابن العاص وحررها صلاح الدين قبل تحريره مدينة القدس كما أسلفنا بصفتها مفتاح القدس[٦٥]، وفي القرن التاسع عشر سكن غزة وزارها

مجموعة من القساوسة ، ولم يحققوا نجاحا في مبتغاهم في حركة التبشير بالمسيحية [٦٦]، **ولا زالت حيث ارتادها العرب، بل يُقال** إنهم أول مَن بناها من البشر باعتبارها قريبة من الجزيرة العربية أرض اللُّبان والتوابل وغيرهما، مما كانت تحتاج إليه مصر الفرعونية في طقوسها الدينية وتحنيط أجسام موتاها[٦٧]، بل يذكر العُمري ما هو أهم من ذلك حين يخبرنا أن غزة كانت وجه الخير والسعد على قبيلة قريش كلها، فحين كان هاشم بها زمن البيزنطيين قابله أحد أباطرتها أو كبار القادة فيها، فأُعجب به وبلباقته، وهنا استغل هاشم هذا اللقاء ليأخذَ أمانا لقريش وقبائل العرب مما بين مكة والشام في تجارتهم: "فدعاه قيصر، فلما رآه وكلَّمه، أعجبه إعجابا عظيما، فقال له هاشم: أيها الملك إن لي قوما هم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمنهم فيه على أنفسهم وما معهم من المال والبضائع وغير ذلك فإنهم يقدمون عليك بما تستظرفه من أدم الحجاز وثمره وغير ذلك مما يصير إليهم ولا يبلغك من طرف البلاد، فأمر أن يُكتب له كتابا جامعا بأمان لعرب شبه الجزيرة العربية [٦٨].

نتائج الدراسة:

هذه هي غزة ببنائها واسمها، ومختصرا لتاريخيها القديم والوسيط والحديث ، عزة وصمود وإباء، قاومت كل محتل، ولم يجرؤ غاز على البقاء في أرضها ، وطالما تميزت باهتمام من حكمها أو جاءها غازيا بعناية إدارية واجتماعية متألقة، وإن عانت من ويلات طبيعية وبشرية بصفتها مفتاح مدن الساحل الفلسطيني الأخرى عامة والقدس خاصة ، وبين هذا وذاك لم ينقطع الوجود العربي على أرضها ، وكانت قبلة لتجارة العرب من شبه الجزيرة العربية في عصورهم الأولى ، وتوفي بأرضها جد الرسول هاشم وزارها أبو الرسول عبد الله ، ولا شك أن غزة نالت استقلالا أو تبعية بتراتيب إدارية مختلفة ولا سيما في عصرها الوسيط ، وتميزت برعاية وتميزت بنوادر كتقويم غزي وعالم وعلماء وشعراء عاشوا على أرضها وكتبوا عنها.

المراجع

[١] العارف، عارف . تاريخ غزة ، مطبعة دار الأيتام الإســـلامية في بيت المقدس (١٣٦٣هـــــ / ١٩٤٣م) ، ص٢٣٦-٢٣٧

[٢] ومحمد كرد علي يعتمد عليه العارف في تاريخ غزة ولا سيما في مادته لهذه المدينة غزة في عصر حكم العثمانيين

[٣] الواقدي، محمد بن عمر بن واقد(ت٢٠٧هـــ/٨٢٢م) (١٩٩٧م) فتوح الشام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج ١ص١٣

[٤] العارف. تاريخ ص١٠ وما بعدها

[٥] العارف ، ص١١٢

[٦] العارف ، ص٧

[٧] العارف ، ص١١

[٨] ياقوت، شهاب الدين بن عبد الله الرومي الحموي(٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ط(١٩٩٥م) ٢، ج٤، ص٢٠٢ وما بعدها

[٩] العارف . تاريخ ، ص٨

[١٠] ياقوت الحموي . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٠٣

[١١] ياقوت . ج٤ ، ص٢٠٢

[١٢] العارف . تاريخ ، ص١١٢

[١٣] التوراة .سفر التكوين . الإصحاح ١٠:١٩

[١٤] جورجي زيدان .غزة ، مجلة الهلال ، دار الهلال ، مجلة ثقافية شـــهرية عربية ، صـــدرت عام ١٨٩٢م ، ج٧ ، ص٤٤٢

[١٥] محمد كرد علي، **خطط الشـام**، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٦٩م ، ج٣، ص١٨ وما بعدها

[١٦] جورجي زيدان .غزة ، مجلة الهلال ، ج٧، ص٢٤٣ ، والعارف . تاريخ ، ص٦٦

[١٧] العارف . تاريخ ، ص٦٨

[١٨] العارف ، ص٦٦

[١٩] ابن عبد ربه، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) العقد الفريد ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ (١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣م) ج١، ص٦٤

[٢٠] العارف . تاريخ ، ص١١

[٢١] الواقدي. فتوح الشام، ج١ص١٣

[٢٢] **الطبري**، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م) (د.ت) تاريخ الرسل والملوك، دار التراث العربي ، بيروت ،ج١ ص١١٣

[٢٣] العارف . تاريخ ، ص١١٥ وما بعدها

[٢٤] شحادة خوري ونقولا خوري. تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، مطبعة بيت المقدس ، القدس (١٩٢٥م) ، ص٧٠

[٢٥] شحادة خوري ، ص٧٠

[٢٦] العارف. تاريخ ، ص١٣٥

[٢٧] ابن واصل الحموي، محمد بن سالم بن نصر الله التميمي الحموي، جمال الدين (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٧م)مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق: د. جمال الدين الشيال د. حسنين محمد ربيع – د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية ، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م) ،ج ٥ ص٣٣٣

[٢٨] ابن واصل الحموي. مفرج الكروب،ج ٥ ص٣٣٨،٣٣٩

[٢٩] المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م). السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، لبنان، بيروت ط١ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) ج١، ص٤٨١

[٣٠] العارف . تاريخ ، ص١٦٢

[٣١] العارف. نفسه ، ص١٢٣

[٣٢] أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن الملك المؤيد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر لمطبعة الحسينية المصرية ، ط١(د.ت) ، ص١٤٤ وما بعدها ، والمقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٣٣

[٣٣] الإنجيل . أعمال الرسل ، الإصحاح ٨، العدد ٢٦

[٣٤] مبيض، سليم عرفات. غزّة وقطاعها، خلود المكان وحضارة السكّان، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٧)، ص٣٩٠

[٣٥] سفر الملوك الأول. الإصحاح ٢١-٢٥

[٣٦] العارف، تاريخ، ص٣٤

[٣٧] العارف ، ص٤٠

[٣٨] سفر صموئيل الأول . الإصحاح ٦:١٧ وسفر الملوك الثاني . الإصحاح ١٨:٨ وسفر آرميا . الإصحاح ٢٥:٢٧ والإصحاح ٤٧: ١-٥

[٣٩] العارف . تاريخ ، ص٤٠

[٤٠] العارف ، ص ٤٠

[٤١] الطباع، الشيخ عثمان مصطفى الغزي. إتحاف الأعزّة في تاريخ غزّة، تحقيق عبد اللطيف زكي أبو هاشم، مكتبة اليازجي، غزّة، (١٩٩٩)، ج١، ص٣١١

[٤٢] مبيّض. غزّة وقطاعها، ص ٣٩٠

[٤٣] العارف. تاريخ، ص ٤٤

[٤٤] العارف ، ص١١٤

[٤٥] للمزيد انظر العارف ، ص١٠٨ وما بعدها

[٤٦] العارف . تاريخ ، ص١١٢

[٤٧] العارف ، ص١١٤

[٤٨] ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار المجمع الثقافي، أبو ظبي ،ط١ (١٤٢٣ هـ /٢٠٠٢م) - ،ج ٣ص٥٥٥

[٤٩] ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥ م) الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، د ار الكتب العلمية – بيروت ، ط١(١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م) ، ج٤ ص١٩

[٥٠] البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م). فتوح البلدان ، دار ومكتبة الهلال، بيروت(١٩٨٨م) ص١٠٩

[٥١] ياقوت. معجم البلدان ، ج٤، ص٢٠٣

[٥٢] البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م) مناقب الشافعي ، تحقيق أحمد صقر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة(١٩٧٠م) ج١ ص٧٣.

[٥٣] الشافعي ،محمد بن إدريس بن العباس (ت ٢٠٤ ه/٨٢٠ م) ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر محمد بن إدريس ، إعداد وتعليق محمد إبراهيم سليم ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة (د.ت) ، ص١١٥

[٥٤] القاضي عياض ، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ه/ ١١٤٩م) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب (١٩٨٣م) ،ج ٣ص١٧٩

[٥٥] ياقوت. معجم البلدان ، ج٤، ٢٠٤

[٥٦] ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي بن محمد بن بن محمد بن أحمد الشهير بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن – الهند، ط٢ (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م) ج٥ ص١٧٣، ١٧٤

[٥٧] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عمران الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٢٤م) سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة ، ط١١(١٩٩٦م) ، ج١٢،ص٣٤٥

[٥٨] ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت (٢٠١١م) ،ج١، ص٦٠

[٥٩] ابن حجر. الدرر الكامنة، ج ٢ص١٢٥

[٦٠] خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي. الأعلام ، دار العلم للملايين ، ط١٥ (٢٠٠٢م) ، ج ١ص٦٤، ٦٥

[٦١] الذهبي. سير أعلام النبلاء، ج ١١ص٣٧ وابن حجر العسقلاني. الدرر الكامنة، ج ٥ص١٧٣، ١٧٤

[٦٢] سورة قريش آية ٢

[٦٣] ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ، ج ٣ ص٥٥٥

[٦٤] الطبري. تاريخ الأمم والملوك ، ج١،ص١١٣

[٦٥] ابن شداد. النوادر السلطانية، ص١٣٤ وابن واصل .مفرّج الكروب ،ج ٥ ص٣٣٣

[٦٦] العارف. تاريخ ، ص١٠٠

[٦٧] العارف ، ص١٠

[٦٨] ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار ،ج ٣ص٥٥٥